من وجوه الاختلاف بين "السياق القرآني" و"السياق الغربي" الدلالي

د. محمد زبير عباسي*

Abstract

Contextual Model of the *Qur'ān* and Semantics – A Comparative Study

This article addresses the concept of context applied by the *Qur'ānic* exegetes, proclaiming it the same term used by the modern linguists in 19th and 20th century. The contextual shades explained by the modern linguists have been ignored by the *Qur'ānic* commentators while interpreting the Holy *Qur'ān*.

The modern text shaped by the modern trends of context is totally different from the context of *Qur'ānic* text.

It is true that there are many similarities between *Qur'ānic* and modern texts, despite these similarities, comparative researchers of the *Qur'ānic* and modern texts found many differences.

Keywords: Semantic Context, *Qur'ānic* Context, Text, Conceptual Textual Differences

المدخل

منذ تفجُّرِ نظريات الألسنية الحديثة والكشوف المستحدثة حول نظرات إلى اللغة والأدب والنص في الغرب تراكمت النظريات فتتابعت ثم اختلفت من باحث لآخر، ومن أهم تلك النظريات التي نالت غاية اهتمام في الدراسات الغربية ولاسيما الدلالية منها هو "السياق"، اعتنى كثير من العلماء المحدثين به حسب منازعهم العلمية والفلسفية، اللغوية والأدبية أو النقدية، ومن ثمت تطورت هذه النظرية على إضاءات بحوث وتحقيقات جرت حول علم الدلالة على أيدي هؤلاء العلماء والألسنيين حتى تجسدت سماتها وتجلت لُمَعُها، فصار مصطلح "السياق" مناط المباحث التي تتمحور حول المعاني والدلالات، وخاصة في سياق علم التفسير/التأويل لدوره البارز في تحديد المعنى وتعيين الدلالة.

إذا كان "السياق" هو المصدر الرئيس لإيضاح المفهوم وتفسير المعنى المراد فلماذا اختلفت أقوال العلماء في التعبير عنه وتفاوتت آراؤهم في ذلك؟ يكشف لنا الجواب عن هذا السؤال أن "السياق" وإن تقاربت مفاهيمه وتماثلت مضامينه ولكن مفهومه يختلف من نظام ودراسة إلى نظام ودراسة أخرى.

ولعل الدافع الحقيقي للغويين ولاسيما الدلاليين إلى بذل قصارى جهود حول تطوير نظرية "السياق" هو أن القارئ أو المتلقي لا يمكنه أن يدرك الغرضَ الذي سيق له الكلام من قراءة فاحصة أو عابرة في الجملة أو الكلام أو النص دون إلمام دقيق بالسياقات والقرائن والأحوال والأحداث التي قيل فيها هذا الكلام أو يقال، وتلك الأحوال والظروف تتفرع إلى الأساسين اللذين عُرِفا عند الدلاليين بالقرائن اللفظية والمعنوية، فلا يتم فهم دلالة النص فهما صحيحا إلا إذا عَرَفَ القارئ أو المتلقي القرائنَ اللغويةَ أو اللفظيةَ وغيرَ اللغويةِ أو المعنويةِ جيدا.

فالمعنى والدلالة ظاهرة مشتركة بين جميع الاختصاصات العلمية، وبخاصة الاختصاصات التي تتعلق باللغة والأدب دون تحديد لغة ما، فـــ "السياق" لكونه مصدر المعنى قد جذب انتباهات العلماء والباحثين إليه في

* أستاذ مساعد (زائر)، قسم اللغويات، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد

جميع اللغات، ونال إعجابا كبيرا لدى علماء العربية، إنه لم يظهر في الدراسات الدلالية العربية كنظرية لها خصائص وسمات إلا بعد أن دُرِسَ وقُنِّنَ ونُظِّرَ في الدراسات الغربية، ومن ثم التبس على الدارسين والباحثين أن "السياق" الذي تكلم عنها جون روبرت فيرث Firth John Rupert(ت: ١٩٦٠م)[١]أو فرانك روبرت بالمرFrank Robert Palmer[٢] بـــ "السياق" الذي عناه علماء العربية، وبخاصة المفسرون، ثمة فروق منهجية يجب أخذها في الاعتبار لأنها توحي بأوجه الشبه والاختلاف بين السياقين؛ القرآني/العربي، والغربي.

اللغة والدلالة

أخذت ظاهرة "اللغة" سماتِ الإبلاغ والإبانة والإفصاح من خلال عملية المرور على أفواهٍ مختلفة، فتشكلت لها سياقات، وتجسمت لها دلالات، وتجسدت لها معان ومفاهيم، ومن ثم أُخِذَ في الاعتبار عند دراسة ظاهرة "اللغة" مراعاةُ مواقفها ومقاماتها وأحوالها ومناسباتها سواء كانت تتعلق بداخل اللغة أم بخارجها.

وفي القرن التاسع عشر حينما ظهر علم الدلالة لم يقف عند ثنائية اللفظ والمعنى بل تجاوز دوائر علوم أخر كانت لها صلة وطيدة به ولاسيما المعاني والبيان في طرف، والتفسير وأصوله في طرف آخر، والفقه وأصوله في طرف ثالث... فلم تكد أن تكون ظواهر الدلالة غانية عن الاستفادة من هذه العلوم في ارتقائها ونموها، لأن النظم القرآني ضرب أروع الأمثلة في الحقل الدلالي التي عالجها علماء التفسير، إنهم وإن لم يصرحوا بمظاهر الدلالة ولكنهم تناولوا جميع لمحات الدلالة المألوفة لدى علماء الدلالة والمعنى، ثم تطور علم الدلالة في أضواء علم التفسير الذي أخذ إشعاعياته الأولى من النظم القرآني.

إن اللغة ظاهرة إنسانية لا تلقى في فراغ، وهي ليست مجرد ضوضاء تلقى في الهواء، وإنما تفهم وظائفها "في ضوء ظروف ومناسبات ومقام تؤدى فيه".[٣] وكذلك دلالات مفردات اللغة تتغير بمرور الزمان عليها وحسب استخدامها في المجتمعات المختلفة. وقد أشار إلى هذه الحقيقة ابن جني – رحمه الله – (ت: ٣٩٢ هـــ) حينما عرَّف اللغة قائلا: "أما حدها (فإنها أصوات) يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".[٤] ولا يتحقق هذا المعنى إلا بعد الأخذ بعين الاعتبار خصائص اللغة، وهي أنها ظاهرة إنسانية، ومهنة، واكتساب، وصوت، ونظام، ورمزية، وعرفية، ومتغيِّرة، ومعنى، ولصيقة أو ممزوجة بالمجتمع والجنس والقومية واللغات واللهجات والفصائل اللغوية العديدة،[٥] هذه الخصائص تجعل مفارقات أساسية بين توظيف لغوي للقرآن الكريم وغيره.

جعل ابن جني الأصوات معيارا للتعبير مما يعني أنها تصلح لِأَنْ تنص على المعنى وتؤدي إلى المفهوم، هذه الأصوات جعلتها المدرسة السوسرية أو مدرسة جنيف التي أسسها أبرز تلامذة دي سوسور شارل بالي Charles Bally وألبرت سيكاهي Albert Sechehaye[٦] بعد وفاته عندما جمعا محاضراته، وألَّفاها، ثم أصبحت تلك المحاضراتُ اللبناتِ الأولى لبناء مدرسة البنيوية اللغوية فيما بعد. مَيَّزَ دي سوسور بين البُعْدَيْنِ: اللغة والكلام، وجعل الأول مفتاحا للهُوِيَّة الجماعية، بينما الثاني فجعله مفتاحا للهُوِيَّة الشخصية، وقرر تنميطهما وتذويبهما وتوليدهما عبر نظام الإشارات التي تجتمع في الصوت/الأصوات عنده، ثم تمخضت مؤخرا من نظريته الفذة للثالوث الإشاري؛ الدال والمدلول والدلالة نظرية السميولوجية البنيوية والألسنية البنيوية.

أدرك دي سوسور في القرن التاسع عشر أن الأصوات هي الإشارات/الرموز، وهي العلامات لدلالة الألفاظ على المعنى، بينما الفكرة ذاتها فقد أدركها علماء العربية منذ قرون، كما سبقت مقولة ابن جني عن اللغة،

حيث جعل الصوت موضع الاعتبار، وموقع الإخبار، ومطمح الغاية، ومنبت المعنى، ومصدر الخبر، ومرجع التعبير. لم يكتف ابن جني بذلك بل أعاد تلك الأصوات/العلامات الصوتية إلى سوسية اللغة والنصية ثم عبر عن تلك السوسية بلفظة "القوم" فصار "المجتمع" جزءا من عينات "اللغة" لديه، ثم زاد في تعريفه للغة كلمة "أغراضهم" أي أغراض القوم ومقاصده ومطالبه ونواياه ومضامينه ودلالاته التي تدور في خلده للإشارة إلى علاقات الكلام بالفحوى الفردي والفئوي والجماعي.

إذن، ستعود اللغةُ إلى البُعْدَيْنِ الهامين في تعريف ابن جني، ألا وهما:

القوم + المجتمع الأغراض + الفرد ———

واجتماع هذين البُعْدَيْنِ يؤكد تعدديةَ اللغة وحواريتَه، ومداخلات الفرد والمجتمع فيها، إن اللغة قد تكون تُبادِلُ الفكرةَ الجماعيةَ عبر علاقته بـــ الكلام، والفكرةَ الفرديةَ عبر صلته بالأغراض، واللغة التي تتولد من هذه العناصر تتخذ لها وجودا من خلال ضبط عناصر أخرى مما يزيد أو ينقص من دلالة اللفظ على المعنى مثل الزمان والمكان والمشاركين (المرسِل والمرسَل إليه) وأحوالهم العلمية والمعرفية والاقتصادية والأشياء وما إلى ذلك، هنا تلتقي اللغة بمصطلح آخر يتناول جميع زواياها وهو "السياق"، فالمداخلات اللفظية والمعنوية التي تجسّد مدلول الملفوظ أو تنمّيه أو تجعله يتحول من موقف لموقف آخر إنما تقتصر على القرائن اللفظية والمعنوية، هذه القرائن أو الأحوال تتمثلها العناصر التي تشير إليها كلمة "السياق".

يؤدي "السياق" دوراً كبيراً في تحديد الإيحاءات الصوتية، هذه الإيحاءات قد تنشأ من المقال وقد تنشأ من المقام، والأحداث دائما تصاحب الأداء اللغوي في إعطاء المعنى وقد تصاحب المواقفَ الخارجيةَ في إفراز الغرض وإيفاء المطلوب، على أية حال، فإن الدلالة المطلوبة من النص المنطوق أو المكتوب يحتاج في فهم المضمون إلى ما يدل عليه "السياق"، قد نقول في المحادثة العادية: إننا قد فهمنا هذا المعنى بسبب كذا، وقد فهمنا ذاك المعنى لأجل كذا وكذا، إذا كانت الأسباب والدواعي من النسيج اللغوي أو الأداء اللغوي تسمى بـــ "السياقات اللغوية"، وإن كانت من غير النسيج اللغوي أو الأداء اللغوي تسمى بـــ "السياقات غير اللغوية".

فالسياق له دور رائد في إنهاض المعنى وإعطاء المفهوم الصحيح للكلام حسب ما تقتضيه الأحوال والمناسبات سواء أكانت هي من الأحوال والقرائن اللغوية أم من غيرها، نظرا لذلك ركز علماء العربية على دلالة "السياق" وأسندوها إلى تفعيل أنماط القرينة والحال والدلالة، يقول الزركشي [ت٧٩٤هـــ(تحت عنوان "دلالة السياق": "أنكرها بعضهم، ومن جهل شيئا أنكره. وقال بعضهم: إنها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى".[٧]

هنا نذكر ما قاله الدكتور تمام حسان في كتابه "البيان في روائع القرآن" تحت قرينة السياق[٨]: "وهي ما يكتنف السياق من قيود تركيبية أو أشراط إفادة أو هما معا". ثم يذكر بعد ذلك أمثلة، فنأخذ منها مثالا وهو قول الكميت بن زيد الأسدي: [الطويل]

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقًا إلى البِيْضِ أطْرَبُ وَلَا لَعِبــاً مِنِّيْ وَذُوْ الشَّيْبِ يَلْعَبُ؟

يقول في شرحه: "فقوله: «وذو الشيب يلعب» بحكم صورته يصلح أن يكون تركيبا خبريا ولكنه في هذا البيت لا يصلح لذلك، لأنه ليس من المعتاد ولا من المعقول أن يكون اللعب ديدن (أي: الدأب والعادة) ذي الشيب (الكبير)، ولو ادعينا أن الشاعر يقصد بعض ذوي الشيب دون كلهم، للزم أن تشتمل العبارة على

ذكر "قد" فتصير العبارة بهذا "وذو الشيب قد يلعب" وهي ليست مذكورة في العبارة، فلم يبق إلا أن يكون المعنى على الاستفهام الإنكاري وأن تقدر الهمزة، فيكون المعنى «أو ذو الشيب يلعب؟»".[٩] يرتبط "السياق" هنا بالسبك اللفظي والحبك الدلالي في النص الشعري.

السياق في اللغة

قال ابن منظور (٧١١ه): "ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا وهو سائق وسواق، وقد انساقت وتساوَقَت الإبلُ تساوقا إذا تتابَعَتْ، وفي حديث أُمِّ مَعْبَدٍ"[١٠]: فجاء زوجُها يسوق أعْنُزاً ما تساوَقَ أي: ما تتابَعَ والمساوَقَةُ: المتابَعَةُ، كأنَّ بعضَها يسوقُ بعضا".[١١]

قال الزبيدي (ت:١٢٠٥ هـ):كلمة "السِّيَاق" مشتقة من (س و ق) أي: مادة "سَوْقٌ" ومنه سَاقٌ، كان العرب يخاطب به عندما أرادوا شدة الأمر وهَوْلَه، فقالوا، "لا ساقَ هناك ولا كشفَ، وأصله أن الإنسان إذا وقع في شدة، يقال: شمَّر ساعده وكشف عن ساقه للاهتمام بذلك الأمر العظيم".

ومن المجاز: ساق المريض يسوق سوقاً وسياقاً إذا شرع في نزع الروح. وكذلك يقال: "ساق إلى المرأة مهرها وصَداقها سياقاً إذا أرسله".[١٢]

ترتب على المعاني والدلالات المذكورة لـ "السياق" أنه يحوم حول الإيراد والتوالي والتتابع والترداد والاختلاف.

السياق في الاصطلاح

تداول العلماء هذه اللفظة منذ قديم، وكانوا يعبرون عنه إما بنفس الصيغة وإما بتعبيرات تقاربها في إفادة معناه، نحو القرينة والشاهد والحال وغيرها من التعبيرات حسب تخصصاتهم المختلفة.

ظهر "السياق" في علم اللسانيات الحديثة كمصطلح بارز ونظرية مستقلة، وأخذ علماء الغرب ولغويوها يوضحونه من خلال أبعاده اللفظية والمعنوية، ومن ثم شاع بين المدارس النقدية (اللغوية والأدبية) أن الفضل في الاطلاع على نظرية "السياق" يعود إلى علماء الغرب لمبادرتهم إلى تنظيرها وتقنينها.

وفي الواقع إن دراسة هذه النظرية بكل عمق ووعي على مستويات علمية بحتة تكشف أن علماء العرب استبقوا إليها، بل إنهم عالجوها في مؤلفاتهم بكل جدٍّ وعنايةٍ، ودرسوا جميع أبعاضها اللغوية وغير اللغوية.

فها هو بشر بن المعتمر (ت: ٢١٠هـ) نجد أنه تعرض لنمطي السياق – المقالي والمقامي – في صحيفته المشهورة بـ "الرسالة" ونقلها الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) بتمامها في كتابه "البيان والتبيين" تحت العنوان: "كلام بشر بن المعتمر" وعبارته كما يلي: "وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال".[١٣]

وقوله "وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة..." ينص على أهمية "السياق اللغوي" ودوره في نظم الكلام وانتظامه، لأن نظم الكلام لا يمكن دون قواعد النحو وإعراب الكلمات إعرابا صحيحا. فالدراسة النحوية لدى علماء العربية تعني دراسة لغوية تنتظم وتنضبط من خلال تسرب هذا النوع من "السياق، وهذا هو المرمى الذي يقصد ويتبين من نوعية "السياق اللغوي" وفاعليته التامة. إذا استقام الكلام نحوا وإعرابا، صرفا واشتقاقا استقام الكلام معنى ودلالة.

وأما قوله "مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال..." فيدل على "السياق غير اللغوي"، لأن مراعاة الظروف والأحوال التي تطرأ على النص وموقفه لا يتحقق إلا من خلال عملية "السياق المقامي"، وهذا النوع من "السياق" يتضح من عبارته الآتية: "وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".[١٤]

إنه فرَّع "المقام" إلى مقاييس تحقِّق المعنى من خلال ضبط الملفوظ سبكا وضبط المراد حبكا، فذكر العناصر التي لها أثر مباشر أو لامباشر في إعطاء المعنى وإيحائه،وجعله يحوي القائل، وأقداره، والمقول، ومقاييسه ثم بنى الثاني على الأول بغية الوصول إلى مراد المتكلم. هذا النوع من السياق مهما يعالج عناصر خارج إطار الإعراب ولكنه لا يشمل بصفة أساسية عناصر النصية التي تُفَعِّلُ وتُشَخِّصُ "السياق" الثقافي والحضاري والتاريخي.

ظهر من كلام بشر بن المعتمر أنه قصد به عناصر السياق غير اللغوي، إنه أدركها، فوعاها ثم استخلص نتيجة تلك الفكرة، فإن اعتبار الكلمة ومصاحباتها ومواقفها التي استُخْدِمَتْ فيها وأقدار الأشخاص الموجودين فيها وتأثرهم وتأثيرهم فيها... هذه العناصر كلها تدل على وجود "السياق" في اللغة العربية.

صرح الإمام عبد القاهر (ت:٤٧١هـ) بالجانب اللغوي للسياق عند حديثه عن النظم قائلاً: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها"...[١٥]

ويؤيد قولَه ما ذكره الدكتور تمام حسان عند حديثه عن "المقال" بأنه يختلف في نظر البلاغيين بحسب "المقام"، فقال: "ومن عباراتهم الشهيرة في هذ الصدد قولهم: "لكل كلمة مع صاحبتها مقام"... ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة "المقام" متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي "المقام" و"المقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة".[١٦]

ففي قولهم: "لكل كلمة مع صاحبتها مقام" إشارة إلى نوعي السياق، اللغوي وغير اللغوي، فالجزء الأول "لكل كلمة مع صاحبتها" يشير إلى السياق اللغوي والجزء الثاني منه "مقام" يشير إلى السياق غير اللغوي، فطن النحاة البلغاء نحو الإمام عبد القاهر الجرجاني وأمثاله إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية نتيجة احتكاكها بهذين العنصرين، لا يمكن في إطار شكلية هذا المفهوم الجماعي للغة إطلاقَها على القرآن الكريم، إنه كتاب أنزله الله هُدى للمتقين، فمن الضروري الاعتراف بالإعجاز لكلام الله الحكيم، والعجز لنا، ولذلك ما تقدم من قول الدكتور تمام حسان يمكن أن يحمل على المبالغة لحد ما، لأن المفهوم الجديد للنص الفاعل في تجسيد نمطية "السياق" لا يتلاءم أصلا مع طبيعة النص القرآني، فلا يصح الادعاء بأن ما جاء الغرب بأشكال جديدة للسياق كانت مألوفة برمتها عند علماء العربية منذ زمان. لأن الأمر لا يقتصر على أوجه الشبه بين المفهومين فحسب بل توجد هنا أوجه الاختلاف أيضا التي لا يمكن صرف النظر عنها عند دراسة المصطلح.

ذهب علماء العربية إلى تعريف السياق من خلال حركتين؛ الحركة الداخلية أي: من الكلمة أو الجملة إلى

الذات وهي تسمى بحركة إعرابية أو نحوية وصرفية، والحركة الخارجية أي: من الداخل إلى الخارج أو من الذات إلى خارج الذات وتسمى بحركة خارجية أو حالية أو موقفية، قام العلماء بدراسة مواقف الإعراب في النحو وأصوله، وبمبادئ المعنى ومواقف الأحوال والظروف في البلاغة وضوابطها وقوانينها.

التزم علماء التفسير ببعض الأمور الدقيقة، فأوجبوا على الباحث – إذا تناول تفسيرَ القرآن الكريم وغرق في استخراج المعاني من ألفاظه – أن يعرف العلاقة النحوية أو الترابط النحوي بين الآية وأختها، وأن يعيَ تناسب الآية مع الأخرى، وأن يدرك مدى علاقة النصوص المتقاربة والمتباعدة، ليصل إلى المراد الصحيح منها، وهذا مشروح لديهم عند حديثهم عن التفسير بالمأثور.

هنا ألفت نظركم إلى أهمية قضية "النسخ" في القرآن الكريم، هذه القضية بمفردها تؤيد أبعاد "السياق" وأبعاضه، لأنه لا يتحقق إلا بدافع الإزالة والإزاحة أو التبديل والاستبدال، ومعرفة هذا الأمر ليس بيسير بل إنه يحتاج إلى إحاطة النص موقعا وإعرابا، معنى ودلالة، ولذلك قال الأئمة: "لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وجميع هذه الأوجه، مع علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول"، أيضا.[١٧]

أما "السياق" الذي تطورت مراحله في "الدلالة" في القرن التاسع عشر والعشرين له جوانب لا تتلاءم مع طبيعة النص القرآني بينما هي تعتبر من أسس "السياق الدلالي"، وهذا الفرق بين الفكرتين الناجمتين من التراثين المختلفين يدرس أوجه الاختلاف بينهما على وجه بسيط.

وأدلى بدلو العرب فى هذا الموضوع الباحثون المحدثون من الأجانب ونخص بالذكر منهم مالينوفسكي Malinow sky Bronislaw Kasper (ت: ١٩٤٢م) الذى استعمل مصطلح Context of Situation سياق الحال (الماجريات) في الملحق الذي دبجه في كتاب "The Meaning of Meaning معنى المعنى" لـــ ريتشارد وأوجدن.

يقول الدكتور محمود السعران إن كلمة "Context"كانت متداولة بين اللغويين قديما ولا تزال متداولة بينهم ولكن مالينوفسكي أضفى على ذاك الاصطلاح – سياق الحال – معنى خاصا... [١٨] وإلا فقد جرى اصطلاح Context على أقلام الكثيرين من الكتاب في دراسة المعنى بمعاني مختلفة باختلاف فرع المعرفة الذي يستخدم فيه الاصطلاح، وأحيانا باختلاف الكتاب في نفس الفرع حتى لقد لحقه بعض الغموض...[١٩]

أما فيرث فإنه وضع الحجر الأساسي للمدرسة الاجتماعية في بريطانيا، وأثبت الوظيفة الاجتماعية للغة،وأكد أن اللغة ناتجة من الظروف الاجتماعية المحيطة بها، لأنها مزيجة من عوامل العادة والعرف والتقليد وغيرها، واللغة الشخصية تتكون من خلال دمج هذه العناصر وإذابتها التي يتكون منها الأسلوب الشخصي. فهؤلاء من الأوائل الذين رفعوا عَلَمَ سياق الحال أو الموقف من المحدثين، ثم احتذى الآخرون حذوهم ناقلين عنهم أن الكلام لا يتم معناه إلا إذا انضم إليه سياق الحال أو المقام بجملة عناصره.

رأى فيرث في السياق غير اللغوي أكثر ملائمة بما ورد فى التراث العربى لاهتمامه بالجوانب اللغوية ولقربه من فهم علمائنا العرب للسياق أو المقام.[٢٠]

استعار فيرث نظرية سياق الموقف contextual theory of meaning or context ofsituationمن مالينوفسكي ثم طورها بما أفاد عناصر سياق الموقف، فهو اشتهر بدراسته للفظ والمعنى وعلاقة المعنى بالسياق

وتدخلاته في تعيـــين المواقف اللغوية أثناء المحادثة وغيرها.

كان مالينوفسكي عالما أنثروبولوجيا، فأفضت به دراساته للأجناس إلى اهتمامه العارض باللغة، وكان فيرث عالما لغويا مهتما بالثقافة الإنسانية إلى الدرجة التي أعانته على تكوين هذه النظرية.

استعمل مالينوفسكي "سياق الحال" باعتباره الموقف الفعلي الذي حدث أو يحدث فيه الكلام وهذه الوجهة منها تشمل الخلفيةَ الثقافيةَ التي وضعت الحدث الكلامي إزاءها، "أي أن معنى الجملة يتحدد بالسياق المعين والذي ترد فيه والسياق الذي قصده مالينوفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع وهو جزء ما يعرف الآن باللسانيات الحديثة التداولية".[٢١] جاء مالينوفسكي بنوعي "السياق"؛ سياق الموقف وسياق الثقافة إلا أنه درس كليهما من المنظومة الأنثروبولوجية وجعل دائرة دراسته بعض النصوص، وامتنع عن تمديد نظرات السياق إلى نصوص أخر.

صَبَّتْ معطياتُ الألسنية الحديثة (السياقية) جميع نشاطاتها على النصين؛ النص الظاهر والنص الباطن، يقول هاليداي Halliday متأثرا بفيرثية أستاذه فيرث حيال "السياق" أثناء شرح نصية "النص" ونصانيته أنه "هو النص الآخر أو النص المصاحب للنص الظاهر. والنص الآخر لا يشترط أن يكون قوليا إذ هو يمثل البيئة الخارجية للبيئة اللغوية بأسرها، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثل اللغوي ببيئته الخارجية".[٢٢]

ركز هاليداي أولا على اللغة من حيث أنها ظاهرة اجتماعية، وفسر المنظور العلامي الاجتماعي لها، وقرر أن النظام الثقافي أو الاجتماعي هو في الحقيقة نظام للمعاني والدلالات والمضامين والمطالب

ثمة حينما توجه علماء اللغة الاجتماعيون إلى المنهج السياقي، وجعلوا مصير "اللغة" إياه بدأوا يؤاخذون إغفال علماء اللغة لظاهرة "السياق".

قبل ظهور علم اللغة الاجتماعي كانت الثنائية؛ اللغة والكلام تعود في أخذ المعايير النصية إلى الكلمة والجملة، وكان "السياق" لم يكن عندئذ إلا وسيلة ربط بين المتكلم والمخاطب، وهذا هو المنهج السائد في التراث/النص العربي الذي بنيت عليه أسس "النص"، وخصوصا "النص القرآني"، بينما تحول "السياق" بعد ظهور علم اللغة الاجتماعي إلى وسطية تجمع بين اللغة والكلام حسب مفهومهما الجديد الذي يشمل متحولات كثيرة، لأن اللغة "نظام من الرموز الصوتية المتفق عليه في البيئة اللغوية، وهي حصيلة الاستخدام المتكرر لهذه الرموز الصوتية التي تؤدي المعاني المختلفة، أما الكلام فهو الكيفية الفردية للاستخدام اللغوي".[٢٣]

فالسياق صار يعم جميع شكلياته اللغوية والنصية، يقول ستيفن أولمان: "وكلمة context قد استعملت حديثا في عدة معان مختلفة، والمعنى الوحيد الذي يهم مشكلتنا في الحقيقة هو معناها التقليدي، أي: "النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم"، بأوسع معاني هذه العبارة، إن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل – لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب – بل والقطعة كلها، والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل – بوجه من الوجوه – كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن".[٢٤]

وهذا المعنى الأعم والأشمل للسياق يقضي على الحدود والشروط التي يجب مراعاتها في صنعة "النص"، ولاسيما النص المقدس أو النص القرآني، لأن النص لا يتم وجوده إلا من خلال دمج عناصر النصية بأكملها، وهذا

الاندماج لا يتحقق دون تعالق وتداخل بين شطر وآخر، ودراسة علاقات ذاك الربط الإسنادي بين شطري النص المتداخِل والمتداخِل تقتضي أبعاض "السياق" بمختلف أشكاله، ومن ثم تحدث مشكلة حيال إسناد القرآن الكريم بصفته نصا إلى النص السياقي، أو السياق العام، أو السياق الدلالي، لأن طبيعة القرآن الكريم تنكر على مكونات التداخل السياقي والنصوصية الدلالية، وبخاصة ترفض أن تسير سَمْتَ كلام البشر.[٢٥]

أقسام السياق

ينقسم "السياق" حسب مفهوم "النص القديم" إلى قسمين رئيسين: السياق اللغوي ويسمى بـــ المقالي أو سياق النص. والسياق غير اللغوي ويسمى بـــ الحالي أو السياق الدلالي.

أما من إطار مفهوم "النص الجديد" يتفرع "السياق إلى أنواع كثيرة، لأن "النص" لم يعد يتحدد في مواقف معينة بل يتعدى دوائر الموقف اللغوي وغير اللغوي إلى دوائر أخرى نحو النص والثقافة والتاريخ والحضارة والبيئة والمجتمع والفرد... ولذلك عندما يفرَّع "السياق" يسمى أولهما: بـــ "السياق اللغوي"، والآخر: بـــ "السياق غير اللغوي"، ثم يقسم ثانيهما إلى أنواع تالية:

سياق النص، وسياق الثقافة، وسياق التاريخ، وسياق الحضارة، وسياق البيئة، وسياق المجتمع، وسياق الفئة، وسياق الفرد وغيرها. ولعلنا نرى ذلك عند تشتيت المعنى وتوزيعه على كتلات لفظية ومعنوية أن الكلام قد يكون له مطلب لفرد ومطلب آخر لفرد آخر، وقد يكون له معنى لفئة ومعنى آخر لفئة أخرى، وقد يكون له مفهوم لقوم دون قوم لاختلاف بيئي أو ثقافي أو حضاري أو نفسي أو شخصي، وقد يكون له مراد حسب التدرج التاريخي، فإن لكل "سياق" دور خاص في بناء المعنى والدلالة، وهذا العموم في "السياق" يعني تنويع صوره وتكييف أشكاله.

السياق اللغوي: هو الذي يحدد معنى الكلمة في النظم من خلال علاقاتها مع الكلمات الأخرى.

عناصره: فالسياق اللغوي له أربعة عناصر، ما لا مناص منها في الوصول إلى المعنى، وهي في نفس الوقت تمثل خطوات توصِّل إلى المراد، وهي: النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي والنظام المعجمي.

فالجملة قد تكون ذات دلالة صرفية نحوية معجمية، غير أن مصاحبة الكلمات وترتيب شكلها يفرز المعنى ما لا يدل عليه شكل الجملة أو النص، مثل قولنا: زيد كثير الرماد. لا يدل على أن زيدا كثير الرماد بالمعنى المعجمي بل يدل على أنه صاحب كرم وجود وسخاء.

إن وقفنا هنا وقفة متأنية لَفَهِمْنا أن الأساليب البلاغية وإن كانت في حد ذاتها تدخل تحت السياقات اللغوية ولكنها في أداء نشاطاتها الدلالية تحتاج إلى السياقات غير اللغوية، لأن تحديد المعنى من التركيب الخاص الذي سيق له الكلام يطلب منا القيام بدراسة المواقف والمناسبات والأشخاص والمتكلم والمخاطب والظروف الزمانية والمكانية وما إلى ذلك. هذه المكونات كلها تُعْتَدُّ من عناصر السياق غير اللغوي.

السياق غير اللغوي: عرفه الدكتور تمام حسان بـــ توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال (وتوجيه الدلالة وفهم المعنى)، ومن هذه الناحية تسمى بـــ سياق الموقف[٢٦]، أو بتقدير آخر هو ربط الأحداث اللغوية بالمواقف الاجتماعية المحددة التي تقال فيها هذه الأحداث.[٢٧]

عناصره: عناصر السياق غير اللغوي منحصرة في أشياء: أحدها: طبيعة الكلام حسب الموقف والثاني: طبيعة

المخاطب والمتكلم والثالث: طبيعة الأشخاص الموجودين هناك والرابع: طبيعة الأشياء المتحدَّثة عنها والخامس: طبيعة النشاطات الصوتية والجسدية وغيرها من الملامح والسادس: مراعاة الزمان والسابع: مراعاة المكان... إلخ.

ونفهم هذين النمطين للسياق؛ المقالي والمقامي من خلال تحليل دلالات "فرقنا" في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾،[٢٨] وقوله تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾،[٢٩] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾،[٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾،[٣١] فكلمة "فرقنا" بمعنى "فلقنا"، و"الفارقات" تعني "الملائكة" تـــنـــزل بالفرق بين الحق والباطل، و"الفرقان" يعني "يوم بدر"، كان فيه فرق بين الحق والباطل، و"فرقناه" أي فصّلناه وأحكمناه، إذا أخذنا في الاعتبار المعنى المعجمي فحسب لاشتقاقات مادة "الفرق" لما تبينا مدلولات الآي القرآنية، إذاً لنصل إلى فحواها ومغزاها نراجع السياقات اللغوية وغير اللغوية بتمامها.[٣٢]

يكشف لنا المخطط التالي الفروقَ بين طرفي "السياق" العربي (القرآني) والأجنبي (الغربي).

أوجه الاختلاف بين ظاهرتي "السياق القرآني" (العربي) و"السياق الأجنبي" (الغربي)	
السياق العربي	**السياق الغربي**
الكلمة، الجملة، الكلام	الكلمة، الجملة، الكلام، النص، اللغة
العلاقات الدلالية (غير التركيبية) من غير "النص/السياق"	العلاقات الدلالية (غير التركيبية) من "النص/السياق"
البيئة الطبيعة أو الواقع الثقافي؛ التداولية من غير مؤشرات نصية "السياق"	البيئة الطبيعة أو الواقع الثقافي؛ التداولية من مؤشرات نصية "السياق"
التباعد بين القرآن الكريم والنصانية	التعالق بين النصانية والسياق
التباعد بين القرآن الكريم والسياق النصاني	التلاحم بين النص والسياق
عدم الزيادة والنقصان	الزيادة والنقصان
عدم التبديل والتغيير على تطاول الأزمان	التبديل والتغيير على تطاول الأزمان
عدم مداخلات الجهل والذهول والنسيان	مداخلات الجهل والذهول والنسيان
الترابط والمناسبة ما فوق اللفظ والمعنى	القرينة اللفظية والمعنوية
عدم اعتبار الحس والشعور من أصول النص/الكلام	اعتبار الحس والشعور من أصول النص/الكلام

هذه الفروق ين نوعي السياق؛ "السياق القرآني" و"السياق الغربي" تؤكد لنا التمايز المنهجي والتباعد النظري بينهما على رغم التشابه والتماثل في بعض الوجوه بينهما.

الخاتمة

توصلنا من خلال دراسة هذا البحث إلى نتائج تالية:

١– "السياق" (مصطلحه ومفهومه) وأسسه وعناصره وأنواعه وأنماطه مدروسة بتمامها في التراث العربي، لكنها تحتاج مرة أخرى إلى دراسة تنظيرية وتحليلية وفق المنهج الحديث/المعاصر، وخاصة إذا كان الحديث عن علم الدلالة العربي لعدم مسير "السياق العربي" في سلك الانتظام العربي.

٢– إعادة سلوكيات السياق النظري والتطبيقي ومداخلاته اللفظية والمعنوية ودورها النافذ في التراث العربي

وعلومه وفروعه.

٣- الحاجة إلى وضع علم المصطلحات العربية لئلا تلتبس مفاهيمها على طلاب العلم.

٤- للغة العربية أصول وقواعد وضوابط ومعايير يجب مراعاتها عند الاتجاه المقارن بين نظريات الألسنيات الحديثة (الدراسات الدلالية) وبين الدراسات العربية.

٥- البحث عن وجوه الشبه بين السياقين؛ العربي والغربي،و وجوه الاختلاف على علاتها لاختلاف البنى الصغرى والكبرى التي بنيت عليها سياقية هذين السياقين/المصطلحين.

٦- القول بإن"السياق الغربي" يمثل "السياق العربي" بكامله أو العكس ادعاء مسترسل. هذا الموضوع يحتاج إلى معاودة النظر وإعمال الفكر حتى تتكون صورة "السياقين" حسب منهجهما الحقيق.

٧- لا بد من إجراء بحوث ودراسات حول القرآن الكريم التي تكشف مطالب عمليات سياقية بأشكالها الحديثة فيه ولا سيما ما نتجت عن عبر تخصصية النص Interdisciplinary Textuality.

نظرا إلى هذه الفكرة ينبغي للباحثين الجدد أن يقوموا بمحاولات ناجحة في سبيل إثبات هذه الحقيقة بأدلة أقنعة دون مغالاة، وخاصة في مجالات علم الدلالة (السميوتيك)، وتطويره وكشف مطارحاته في التراث، يمثل البحث خطوة تُرْشِدُ إليها.

الهوامش والمصادر

---

[١] ولد جون روبرت فيرث سنة ١٨٩٠، عمل أستاذا للغة الإنجليزية في جامعة البنجاب، باكستان من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٨، تسلم وظيفة من قسم الصوتيات في جامعة لندن، ثم انتقل في عام ١٩٣٨ إلى قسم علم اللغة في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن حيث عمل من عام ١٩٤٢ حتى تقاعد عام ١٩٥٦ أستاذا لعلم اللغة العام. كان فيرث معلما بارعا، انتشرت أفكاره، خاصة ما تتعلق بعلم الأصوات اللغوية، طوَّر تلاميذه تلك الأفكار حتى فتئت تُعْرَفُ فيما بعد بـــ مدرسة لندن في علم اللغة. ومن أهم مؤلفاته: ينظر: جون إي جوزيف، نايجل لف، تولبت جي تيلر، أعلام الفكر اللغوي التقليد الغربي في القرن العشرين، ترجمة: د/أحمد شاكر الكلابي، ط: ٢٠٠٦، دار الكتاب الجديد المتحدة، مج ٢، ص ١٠٢.

[٢] ولد فرانك روبرت بالمر سنة ١٩٢٢، عمل عالما لغويا وباحثا دقيقا في علم الدلالة، صار بالمر أستاذ اللغة في كلية الجامعة، بنجور University College, Bangor عام ١٩٦٠، إنه درّس في جامعات كثيرة، وسافر في محافظات عديدة داخل أوربا لإلقاء المحاضرات حول اللغة بانتماءاتها المتعددة، وله عضوية في هيئآت البحوث ومجامعها مثل المعهد البريطاني British Academy، والمعهد الأوربي Acadmeia Europaea وغيرهما. ومن أهم أعماله: Mood and Modality، (Semantics (together wit John Lyons، Grammatical Roles and Relations. يراجع في معرفة ترجمته موقع ويكيبيديا en.wikipedia.org/wiki/frank_R._Palmer، وأنا راجعت صفحة الشبكة صباح ١ إبريل (April) 2015 الموافق ١١ جمادى الأخرى ١٤٣٦هـــ.

[٣] حماد، د. محمد أحمد. مدخل إلى التفكير الدلالي. ط:١٩٩٨ء، دار الثقافة العربية، ص٣١

[٤] ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق: محمد على النجار. ط٣: ١٩٨٦ء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١/٣٤

[٥] عبد العزيز، د. محمد حسن. مدخل إلى اللغة. ط٢: دار الفكر العربي، القاهرة

[٦] أسس شارل بالي [١٨٦٥١٩٤٧] وألبرت سيكاهي/سيشهاي [١٨٧٠-١٩٤٦] مدرسة في الألسنيات الحديثة/فقه اللغة/المقارن التي قامت على تعاليم دي سوسور ومبادئه وطرائقه في التحليل النصي، وقد قاما بجمع محاضرات دي سوسور بعد وفاته بعامين تقريبا. عرفت تلك المدرسة التي أنشآها فيما بعد بـــ مدرسة جنيف. ينظر: [علم اللغة العام (مقدمة)]

[٧] الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي. البحر المحيط في أصول الفقه. قام بتحريره: الدكتور عبد الستار أبو غدة. راجعه:الشيخ عبد القادر. ط٢: ١٤١٢هـــ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ٦/٥٢

[٨] حسان، د. تمام. البيان في روائع القرآن. تحقيق: عبد الخالق ثروت. ط: ١٩٩٣ء، عالم الكتب،القاهرة، ص٨

[٩] البيان في روائع القرآن، ص ٩

[١٠] هي امرأة عجوز اسمها عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة بن أصرم إحدى بني كعب من خزاعة، رضي الله عنها، كانت تجلس قرب الخيمة تسقي المارين بها، والضيوف القادمين إليها، والطارقين ببابها وتطعمهم، وقد استضافت النبي صلى الله عليه وسلم في خيمتها أثناء رحلة هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، روى الحاكم وغيره قصة استضافتها النبي الأمين ﷺ بحليب الشاة التي خلَّفها الجَهْدُ عن الغنم، فدعا بها، واعتقلها، وحلبها فدرَّت واجترَّت، ودعا بإناء يشبع الرهطَ إلخ، ينظر في تفاصيل القصة التي تحسب من معجزات النبي ﷺ [الطبراني، سليمان بن أحمد. المعجم الكبير. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ٢٥/ ٢٥٤-٢٥٦]

[١١] ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. تحقيق: عامر حيدر. مراجعة: عبد المنعم خليل إبراهيم. ط١: ٢٠٠٣ء، دار الكتب العلمية، بيروت ١٠/ ١٩٩-٢٠٠

[١٢] الزبيدي، السيد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: إبراهيم الترزي. مراجعة: لجنة فنية من وزارة الإعلام بتحقيق مصطفى حجازي. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٥/ ٤٧٢-٤٧٥، ٤٨١-٤٨٣. وينظر في الحديث الذي أشير إليه في شرح معنى "السياق" أي "التساوق": [ابن الأثير، المبارك بن محمد. النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق: محمود محمد الطناجي، طاهر أحمد الزاوي. ط١:١٩٦٣ء، المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ، ٢/ ٤٢٣-٤٢٥]

[١٣] الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون.ط٧: ١٩٩٨ء، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١/ ١٣٦

[١٤] البيان والتبيين، ١/١٣٨

[١٥] الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تعليق: السيد محمد رشيد رضا. ط٣: ٢٠٠١ء، دار المعرفة، بيروت، لبنان،ص٧٠

[١٦]حسان، د. تمام، اللغة العربية معناها ومبناها.ط: دار الثقافة، شارع فكتور هيكو. الدار البيضاء، المغرب، ص٣٣٧

[١٧] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر. معترك الأقران في إعجاز القرآن. ضبطه وشرحه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين. ط١: ١٩٨٨ء، دار الكتب العلمية بيروت، ١/ ٩٩

[١٨] السعران، د. محمود. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي. ط: دار النهضة العربية، بيروت، ص٣١١

[١٩]حسان، د. تمام. مناهج البحث في اللغة. ط: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص٢٦١

[٢٠] مدخل إلى التفكير الدلالي، ص٣٩

[٢١] الخزرجي، عبد الباقي بدر. "قرينة السياق وأثرها في النص القرآني". مجلة كلية التربية الأساسية. العدد الثامن والستون. ط: ٢٠١١م، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، ص ١٢١

[٢٢] عوض، يوسف نور. علم النص ونظرية الترجمة. ط١: ١٤١٠هـ، دار الثقة للنشر والتوزيع مكة المكرمة، ص٢٩

[٢٣] حجازي، محمود فهمي. علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية. ط: وكالة المطبوعات، الكويت، ص ٢٦

[٢٤] ستيفن أولمان. دور الكلمة في اللغة. ترجمة وتقديم وتعليق: د. كمال محمد بشر. ط: مكتبة الشباب،ص ٥٧

[٢٥] يراجع في تفاصيل القضية: عباسي، محمد زبير. "بعد النص القرآني عن التناصية". مجلة الدراسات الإسلامية. العدد الثاني، المجلد التاسع والأربعون. ط: الصيف (إبريل – يونيو ٢٠١٤م)، مجمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد، باكستان، ص ٦٣-٨٩

[٢٦] صالح، د. محمد سالم. أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى. ص١؛ نقلا عن "قرينة السياق" لـــ د. تمام حسان. بحث قدم في الكتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم. ط: ١٩٩٣ء، مطبعة عبير للكتاب، ص ٣٧٥

[٢٧] مدخل إلى التفكير الدلالي، ص ٣٦

[٢٨]القران الكريم، سورة البقرة، ٢: ٥٠

[٢٩]القران الكريم، سورة المرسلات، ٧٧ : ٤

[٣٠]القران الكريم، سورة الأنفال، ٨ : ٤١

[٣١]القران الكريم، سورة الإسراء، ١٧ : ١٠٦

[٣٢] يراجع في تفسير الآي: القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر. الجامع لأحكام القرآن المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. شارك في تحقيق هذا الجزء: محمد رضوان عرقسوسي. ط١: ٢٠٠٦ء، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢/ ٨٩